XXI PREMIO DE TRADUCCIÓN FRANCISCO AYALA

بعد أن أنهيتُ درسي هذا المساء حول تأثير الحب على مجرى تاريخ البشرية. عمَّ الفصل صمتٌ غريب. أحسستُ أن كل حاضرٍ في الفصل انطلق ليغوص في دواخله بحثا عن ماهية الحب وعلاقته الجدلية بالحياة.

اجتاحت فكري في تلك اللحظات صورة طارق وغيابه القاتل في حياتي، لقد أصبحت أيامي بدونه صعبة ودون نكهة. هو هذا الحب على رأي كيرغارد، يعطينا كل شيء ولكنه يأخذ منا كل شيء.

ألقيتُ نظرةً على ساعتي ثم أعلنتُ انتهاء الدرس قائلةً:

- انتهت حصةُ اليوم، نلتقي الأسبوع المقبل. حاولوا أن تبحثوا في موضوع انعكاس الحرب الأهلية على الأدب الإسباني، الشعر خصوصا كدراسة حالة.

صاحت "بريا"، الطالبة الكاميرونية في فصلي، بلكنة تغلبُ عليها السخرية:

- أنتِ تتربصين بآمال الحب في قلوبنا إذن أستاذة ليلى بعد "غوته" و"نوفاليس" و"ت.س. إليوت"، سيكون "لوركا" محطتنا القادمة.

أجبتها مجاملة:

- سنمرُّ على كل عظماء الحب عزيزتي بريا.

كان قد خرج كل الطلبة من الفصل، لم يبقَ إلا هي واقفة بالمحاذاة من مقعدها وأنا أجمعُ حقيبتي. ظلّت تحدقُ في سحنات وجهي باهتمام ثم صاحت وهي تغادر بخطى متثاقلة:

ما الإنسان دون حريةٍ يا ماريانا، قولي لي؟

كيفَ أستطيعُ أن أحبك إذا لم أكن حراً؟

كيفَ أهبكِ قلبي إذا لم يكن ملكي؟

عند خروجها توقفت يداي وأسلمتُ جسدي لمقعدي. أخذت نفسا عميقا وأنا أغالبُ البكاء على مصير قصة حبّي مع طارق... كيف استطاعت بريا أن تشعر بمأساتي مع طارق وهي تردد أشعار لوركا؟

غادرت قاعة الدرسِ متوجهة إلى مكتب الأساتذة. في طريقي لمحتُ "بركات"، القومي العربي الوحيد في المعهد، واقفاً بجانب باب المقصف كأنه ينتظر شخصا ما.

توجهتُ نحوه ثم سألته مبتسمةً:

- يعني لم تقل لي ما رأيك في الرفاق الذين عرفتكَ عليهم؟

ابتسم قبل أن يقول:

- لم أكن أعلم أن هناك قوميين عرب بهذه الكثرة في المغرب، أنا حقاً مدينٌ لكِ يا أستاذة ليلى بهذا الفضل.

قلتُ له ممازحة:

- أنت لم تُجبني على سؤالي!
- كلهم رائعين، ناصر أصبح صديقاً مقربا لي، وأشتغل معه الآن على مشروع سياسي.
- أي مشروع؟
- لقد أخبرك ناصر عنه وهو لازال ينتظر ردّك بالانضمام لنا. المغرب في حاجة لنا أستاذة ليلى، بحاجة لتضحيات شبابه كي نصنع منه بلدا يحترمُ حقوق شعبه وكرامته، نحن نستحق أن نعيش في وطن بدون استبداد.

نظرتُ في عينيه طويلا ثم ودعته قائلة:

- ألم تعد تنوي الهجرة إلى كندا السنة المقبلة؟ مع السلامة، لا تنسَ، أنت مدعو لعرس رفيقتنا حليمة الهلالي.

في مكتب الأساتذة وجدتُ "أليس" أستاذة الأدب الإنجليزي في المعهد منشغلة في كتابة شيء ما في مذكرةٍ لا تغادر يدها وبجانبها كتاب ضخم. خمَّنتُ أنها تنقلُ منه ملاحظات تتوقف عندها في حصصها.

ألقيتُ عليها التحية وانشغلنا في محادثة عن أحوال التدريس والحياة الزوجية والأولاد حتى سمعنا طرقا على الباب قبل أن يدخل السيد "أوغست بروان" مدير المعهد، ألقى علينا التحية وطلب مني أن ألتحق بمكتبه عند انتهائي.

سألتُ نفسي ما الأمر الذي دفع المدير لأن يبحث عني بنفسه. استأذنتُ "أليس" في المغادرة وبعدها وضعت كتبي ودفاتر الطلبة في درج مكتبي الخاص، اتجهت إلى مكتب السيد المدير.

عند دخولي رحب بي بطريقته المهذبة والحميمية كعادته وطلب مني الجلوس ثم بادر قائلاً:

- أرجو أن تكوني قد أنهيتِ حصتكِ ولم أقاطعكِ...

أجبتهُ بتردد:

- لا أبداً، لقد أنهيتُ حصتي.

- اسمعي يا أستاذة ليلى، أنت تعرفين أن الكنديين عمليين ويدخلون في صلب الموضوع مباشرةً.

قطبتُ حاجبيَّ وشعرت بانقباضٍ وتوتر في أعلى صدري... تساءلتُ : هل سيفاجئني المدير بأمرٍ مقلق؟ سمعته يسترسل وقلبي يخفقُ بسرعة:

- تجربة التعليم الأكاديمي الحر للطلبة الراغبين في الهجرة والاستقرار في كندا كانت تجربة جيدة ومفيدة وأنتِ بدوركِ لاحظتِ هذا معنا طيلة السنوات السابقة، لكن الحكومة الفيدرالية قررت أن توقف هذه التجربة في بلدان المهاجرين ونقلها إلى كندا...

أجبته بهدوء مصطنع:

- نعم أعلم هذا، وأعرفُ أن هذه السنة هي آخر سنة دراسية في المعهد.

استرسل في حديثه:

- جيد، لكن دعيني أخبرك أن الحكومة قررت فتح مسلك أكاديمي قار ودائم بجامعة لافال بالكيبك السنة المقبلة لتدريس الطلبة المهاجرين. لقد أعدَّت الحكومة كل شيء، مراكز الأبحاث والأقسام وكل الشروط البيداغوجية وعينتني مديراً للمسلك كما كلفتني أيضا بتوظيف أساتذة أكفاء...

ابتسمتُ بلطف مهنئة المدير، شكر تهنئتي ثم أكمل حديثه:

- اسمعي يا ليلى، هناك مجموعة من الأساتذة في المعهد سأعرض عليهم فرصة الالتحاق بكندا للتدريس هناك وأنتِ على رأسهم... كفاءتك وقدراتك الأكاديمية لا يمكنُ لنا أن نفرط فيها، كما أن شخصيتك حيوية ومهذبة جداً... أرجو أن تقبلي هذه الفرصة يا ليلى.

- لكن يا سيادة المدير...

قاطعني بسرعة:

- اسمعي يا ليلى، مثل هذا العرض لا نقرر فيه في ثوانٍ، سأمنحكِ وقتاً للتفكير، من هنا إلى آخر السنة.

نظر إلى عينيَّ جيدا ثم أردف قائلاً:

- في كندا لن نعتبرك مجرد موظفة أو مهاجرة للعمل، بل سنمنحكِ الجنسية الكندية في عامكِ الأول ولزوجكِ أيضا وسنوفر لكِ منزلا مدفوع الأجر لسنة كاملة بمدينة ليفيس قرب الكيبيك، مدينة جميلة وهادئة تطلُّ على الضفة الجنوبية لنهر سان لورين ستعجبك، فضلا عن الامتيازات الاجتماعية... فكري جيداً في الأمر عزيزتي، إنها فرصةُ العمر.

خيم علينا الصمت للحظات، كنت قد بدأت فيها فعلا التفكير في العرض، فقد بدا لي مغريا وقفزة كبيرة في حياتي الشخصية والمهنية. قلت مع نفسي، الموضوع يحتاج فعلا إلى تفكير عميق.

في الوقتِ الذي لمحتُ فيه المدير يقفُ ويتجه إلى درج في أسفل الخزانة التي تقعُ على يمين مكتبه... سقطتْ في فكري صورة طارق. كيفَ يمكنني أن أهاجر المغرب وأبتعد عن طارق؟ لا يمكن لي فعل ذلك. سأختنقُ في غيابي عنه وكيف لي أن أبعد ليال ابنته عنه؟ لكنَّ صوتاً أنانياً في داخلي قاطع أسئلتي قائلاً "لماذا هو يغادركِ في كل مرة بكل سهولة؟ لماذا لم يختنق هو كذلك؟ كم أنتِ غبية، هو لم يكترث لكِ في كل المرات التي رحل فيها إلى فلسطين والى الموت وأنتِ لا تقدرين على هجره الى بلدٍ آخر بعد عشرين سنة من قصتك الفاشلة معه ودون أمل".

سمعتُ صوت المدير يتعالى في أذني:

- ليلى... ليلى...

- نعم سيدي المدير.

مدَّ لي ورقتين، لمحتُ على رأسيهما علم دولة كندا ورمز المعهد، ثم قال لي:

- هاتان استمارتان لكِ ولزوجك. أتمنى أن تملئيهما عند موافقتك التي سأنتظرها بفارغ الصبر.

مسكتُ الاستمارتين بتردد، لم أجد ما أقوله حينها سوى أنني شكرته على عرضه وتمنيتُ له يوما طيباً قبل أن أغادر مكتبه وأنا ممتلئة بحياةٍ جديدة. [...]

مراد الضفري. "مَلَنْخُوليا. أنت أو لا وطن" . مطبعة شمس بر انت – الرباط. 2018.

Organizan:

FACULTAD DE TRADUCCIÓN E INTERPRETACIÓN

UNIVERSIDAD DE GRANADA

fundación FRANCISCO AYALA